المقدِّمة

لِمَ السَّببيَّة؟

إنَّ الحلقـة الرابطة بين أفكارنا وأفعالنا سـتصبح مفقودة، والأمر نفسـه بين أفعالنا والنتائج، ومن دونها سنفتقد النظام المبنيَّ على أساس القانون؛ لأنّ اللوم يقع على الشخص الذي يسبِّب أذًى، أو يُلحق ضررًا بالآخرين من حوله، وعندئذٍ لن يُوجَدَ أثرٌ للعلم أو الثورة المعرفيَّة؛ فعلاقاتنا مع الآخرين من حولنا تستند إلى ارتباطات سببيَّة يمكن التنبؤ بها، والسَّببيَّة هي أساس هذا التوقع، والتفسير.

والسؤال المطروح هنا: ما العَلاقة بين حصول شيء ما، ووقوع النتيجة؟ فعلى سـبيل المثال: لماذا يحطِّم حجر ما نافذة؟ ولماذا تتسـبَّب بُقعة نفطيَّة بانزلاق ما، أو حصول عارض معيَّن؟

السَّببيَّة (causality): هي العَلاقة بين السَّبب والمُسبِّب، ومبدأ السَّببيَّة أحد مبادئ العقل التي طرحها بعض الفلاسفة، وقدعبَّروا عنه بقولهم: «**لكل ظاهرة**

obeikandl.com

سبب أو علَّة» ؛ فما مُنشَأ إلا وكان لوجوده سبب، وقد زعم كانط أنَّ السَّببيَّة إحدى المماثلات الضروريَّة لتفسير الخبرة ، واقترح لها مبدأين: أولهما مبدأ الإحداث أو الإنتاج، والثاني مبدأ التتابع الزمانيِّ؛ أما الأوَّل، فيرى أنَّ لكلِّ حادثٍ سببًا يتوقَّف وجوده عليه قبل حدوثه، وأما الثاني، فيجزم بحدوث التَّغيرات جميعها وفقًا لقانون الارتباط بين السَّبب والنتيجة؛ أيْ بين العِلَّة والمعلول.

لقد خاض الفلاسفة في هذا الموضوع منذ آلاف السنين، تحديدًا منذ عهد أرسطو (322–284 ق.م) ، وهم يتناولون المسألة من منظور مجرَّد، بينما يواجهها العلماء بأمثلة مادِّيَّة محدَّدة؛ فالعلوم تعجُّ بالقضايا السَّببيَّة، وفي مرحلة ما سيكون العالِم مضطرًّا إلى الاستفسار عمَّا يتعامل معه بالضَّبط.

وممّا لا شكَّ فيه وجود العديد من وجهات النظر المختلفة حول السَّببيَّة؛ فقد يعتقد بعض الناس أنَّ الأساس الذي تقوم عليه السَّببيَّة هو الانتظام؛ أيْ إنَّ وجود شيء ما أو حدثٍ ما مُرتبط بوجود الطرف الآخر، فيما يرى آخرون أنَّ ما تقدَّم ليس كافيًا، ولا يؤدِّي بالضَّرورة إلى نشوء علاقةٍ سببيَّةٍ بين الحدث والآخر.

وتُوجَدُ نظريـة أخرى تعتقد بوجود علاقة بين الأثر والسَّبب الذي يرتبط به. لكن، هل هذا كافٍ لتمييز الأسباب عن الظواهر الأخرى ذات الصِّلة؟

ستعرِّف هذه المقدِّمة القارئَ بالنظريَّات الرَّئيسة المرتبطة بالسَّببيَّة، والنقاشات، والخلافات الدائرة حول هذا الموضوع، مثل: هل يمكن للأسباب أن تسبق آثارها؟ هل يمكن التقليل من السَّببيَّة في إطار حدود قوى الفيزياء؟ وهل نملكُ الحقَّ في التفكير بالسَّببيَّة على أنها شيء واحد فقط؟

لن نتردَّد في مناقشة القضايا المُتنازَع عليها حول السَّببيَّة، وسنكون منفتحين على حقيقة أنّه لا بدَّ من الوصول إلى توافق نهائي حول هذا الموضوع الحيوي.

سنُعرِّفُ القارئ واحدًا من الموضوعات الأساسيَّة في الفلسفة دون الحاجة إلى إجراء مسح ميداني، أو استطلاع رأي مُمَنْهج، علمًا أنَّ هذا الكتاب ليس موجَّهًا للفلاسفة فقط؛ لأنّ كلَّ مهندس، وكلَّ صيدلي له ارتباط وثيق بالسَّببيَّة بصورة أو بأخرى.

يُعدُّ التفسير السَّببيُّ الأكثر شيوعًا، والأكثر انتشارًا من السَّببيَّة في العلوم الأخرى؛ لأنّ التوقُّع يرتكز على القوانين السَّببيَّة المعروفة.

وفي الوقت الذي تُعدُّ فيه السَّببيَّة جزءًا لا يتجزَّأ من علم الفلسفة، فهي أيضًا جزءٌ أساسيٌّ من علوم الفيزياء، والأحياء، والكيمياء، وعلوم الأرض، والأرصاد الجويَّة، إضافة إلى علمي الفلك والمحيطات، ولا يمكننا أنْ نتجاهل العلوم الاجتماعيَّة أيضًا، مثل: الاقتصاد والتاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم الإنسان، وعلم النَّفس، والعلوم السياسيَّة، والقانون؛ فالقضايا السَّببيَّة موجودة في كل مكان، ولها ارتباط وثيق بمختلف الاختصاصات.

قد تثير السَّببيَّة قلق المُبتدِئ؛ بسبب طبيعتها النظريَّة والفنيَّة، شأنها في ذلك شأن العديد من مجالات الفلسفة، ومع أنّ الكثير من الأفكار الأساسيَّة، والمفاهيم، والأسئلة المتعلقة بالسَّببيَّة تمتاز بالبساطة، فإننا نرمي إلى شرح المسائل الرئيسة المرتبطة بها، وإذا لم نتبنَّ إحدى النظريَّات المرتبطة بالسَّببيَّة، فلن نتمكن من البحث، أوالخوض في ماهيَّتها. وعليه، إذا تمكَّن أحدنا من تطوير نظريَّته السَّببيَّة، وتحديثها فهو قادر على اكتشاف الأسباب، وقد يكون هذا الأمر حيويًّا، وضروريًّا؛ فعلى سبيل المثال: لا بدَّ من تحديد أسباب أمراض مُعيَّنة، لنتمكَّن من توفير الأدوية التي تسهم في الشفاء من تلك الأمراض. ولن يكون بمقدورنا السَّيطرة على التغيُّر المناخيِّ إلا عندما نفهم مُسبِّباته، وينبغي لنا أن نُحدِّد الأسباب جميعَها التي تؤدِّي إلى نشوب الحروب، وولادة الفقر والمعاناة، والألم، ونتجنَّبها بتوفير أسباب الاستقرار، والسَّلام، والازدهار.

ولكـن، كيف من المُمكـن أنْ نجعل هذه الآمال، والطُموحات حقيقة على أرض الواقـع، إذا لم نَـع طبيعة العَلاقة السَّـببيَّة بين الأشـياء؟ من يريـد الحصول على الإجابة، فلا شـكَّ أنَّ هذا هو المكان الأنسـب لذلك ، ولا شـكَّ في أنَّ الجميع معنيٌّ بذلك.

opeikandl.com